علم الانسان

تقسيم الاجناس

قبل الفراغ من الكلام على اجناس الانسان لا نرى غنًى عن ايراد الاقوال المختلفة في تقسيم تلك الاجناس. واولها واهمها تقسيم بلومنباخ في اواخر القرن الثامن عشر. فقد قسم اجناس الناس الى خمسة اقسام وهي القوقاسي والمنغولي او المغولي والاثيوبي والاميركي (الهندي) والملقي. اما القوقاسي فلا يزال القول به حتى الآن على ما قيد من الشمول الذي ينظم العربي والاسوجي مثلاً في سلك واحد مع ان الفرق بينهما ليس اقل مما بين الاميركي والملقي وقد جعل كلاً من هذين قسماً مستقلاً عن الآخر كما رأيت. وهذا عيب واضح في تقسيم بلومنباخ كما ان من عيوبه الاغضاء عن الجنس الاسترالي (الاصلي) والبشمن من اهل جنوب افريقية الاصليين وعدم ذكرهما في ذلك التقسيم وهما من ابين تنوعات الانسان واوضحها حدوداً

ثم قسمها كوفييه الى ثلاثة اقسام القوقاسي والمغولي والزنجي او الابيض والاصفر والاسود او كما سماها الاقدمون اليافثي والساميّ والحامي. ولكن هذا التقسيم المنظور فيه الى اللون دون غيره ليس جامعاً مانعاً لما تقدم من الاعتبارات

وقسمها بكرنج الى ١١ قسماً وبوري سان فنسان الى ١٥ وديمولن الى ١٦. ومزية هذا التقسيم الاخير شموله اي انهُ يتناول جميع التنوعات الواضحة الحدود ولا يهمل احدها. ولكن العلماء الطبيعيين لم يجمعوا على تقسيم من كل التقاسيم المتقدمة اذ لم تخلُ من وجوه الضعف ومغامز النقد. ويكفي في انتقاد تقسيم بكرنج ان يقال انهُ قسم الامم البيضاء الى قسمين العربي والحبشي. وهذا ايضاً هو شأن غيره مثل اغاسيز ونوط وكروفرد وامثالهم. ولعلّ تقسيم هكسلي افضل تقسيم في نظر علماء الحيوان. فقد قسم الناس الى اربعة تنوعات وهي الاسترالي (الاصلي) والزنجي والمغولي والابيض الناصع البياض (زانثوكروي) واضاف اليها تنوعاً خامساً وهو الاسمر (ملانوكروي) وتحت هذه التنوعات فروع وفصائل كثيرة. اما علماء علم الانسان فيعترضون على هذا التقسيم لانهم يحسبون بعض تلك الفروع والفصائل تنوعات قائمة بنفسها

ولا يخفى ان المحكّ الذي اعتمد العلماء عليه ليعرفوا هل امم البشر المختلفة تنوعات لنوع

واحد هو تزاوجها واتيانها نسل غير عقيم على الدوام. وقد عُرف بالاختبار ان الخلاسيين المولودين من الاوربيين والسود او من الاوربيين والهنود الاميركيين يلدون على الدوام وكذلك المولودون من الهنود الاميركيين والسود وغيرهم. وان لنسلهم صفات مختلطة ورثها من الابوين وهو انما يختلف عن النوعات الاصلية بأن فيه ميلاً الى العود الى هذا الاصل او ذاك كثُر ذلك الميل ام قلّ. وقد قام بين العلماء من قال ان ليس الخلاسيون كلهم ولودين على الدوام. وان الخلاسيين المولودين من الاوربيين والاستراليين الاصليين بوجه خاص يكادون يكونون عقيمين. ولكن طول التحقيق اثبت بطلان هذا القول وايّد المذهب الشائع من انهُ اذا تزاوج نوعان نتج من تزاوجهما فرع جديد وان هذا الفرع يأتي نسلاً اذا تزاوج افرادهُ وافراد اي النوعات الاصلية

فبناء على ذلك اذا سلمنا جدلاً بوجود عدد قليل من النوعات البشرية بادئ بدء فواضح ان تزاوجها يفضي الى ظهور عدد غير محدود من النوعات الفرعية كما هو الحال بين الناس الآن. ومن رأي البعض انهُ لا يبعد ان يكون تزاوج النوعات المختلفة هو كل السبب او بعضهُ فيما يرى الآن من الفرق بين الامم الكثيرة الاختلاط في نسبها كاهم اوربا مثلاً. فقد ذهب هكسلي الى ان المولّتوت من اهل جنوب افريقية متولدون بين البشمن وازنوج من اهل تلك البلاد. وان الشمر (ملانوكروي) من اهل جنوب اوربا هم نتيجة تزاوج البيض والاستراليين الاصليين

بقيت هناك مسألة عظيمة الشان في هذا الباب اختصم عليها علماء علم الانسان سنين طوالاً ولم يتفقوا وهي كيف اختلفت نوعات الناس القليلة التي يمكن عدّها اولية هذا الاختلاف الذي نراهُ الآن والذي صارت به اقساماً مستقلة بنفسها بحيث يسهل تمييزها بعضها من بعض. والعلماء في ذلك فريقان. فريق يرى ان جميع صنوف البشر تسلسلوا من اصل واحد او من زوجين لا غير. وفريق يدعي ان النوعات الاولية تولدت من اصول مستقلة وبعبارة اخرى ان الناس يرجعون الى اجداد مختلفة الاصول لا الى جدّ واصل واحد

اما الفريق الاول اي القائلون باصل واحد فيتعيّن عليهم ان يبينوا ما هي العوامل التي افضت الى ما يرى من الفروق العظيمة بين اجناس البشر مع تفرعها من اصل واحد. فالقدماء لم يجدوا صعوبة كبيرة في بيان تلك العوامل فقال ارسطو مثلاً ان الاقليم هو اعظمها وان

الشمس هي التي سودت بشرة الزنجي . ولكن ظهر للباحثين من المتأخرين ان عامل الاقليم اضعف فعلاً وابطأ سيراً مما كان يظن وان الاجناس المختلفة اختلافاً واضحاً في بناء اجسامها كالشمن والزنوج في افريقية يعيشون في اقليم واحد ولكن ليس ثمة دليل يدل على ان بناء اجسامهم آخذ في التماثل والتجانس . ومن جهة اخرى نرى بعض قبائل اميركا الجنوبية لا تزال متشابهة من عهد بعيد رغم عظم اختلافها في الاقليم والمأكل . وقد نظر داروين الى هذين العاملين عامل الاقليم وعامل اختلاف طرق المعيشة وتأثيرهما في اجناس الناس المختلفة فظهر له ولغيره من كبار الباحثين ان تأثيرهما ضئيل وبطيء الى حد يعسر عنده التوفيق بين هذه النتيجة والمدة القصيرة التي مضت على خلق الانسان على ما جاء في التوراة . ولما كان بعض طوائف الناس كالمصريين والزنوج لا يزالون الآن كما كانوا منذ ثلاثة آلاف سنة او اربعة آلاف في هيآتهم وملامحهم فاختلافهم الى هذا الحد عن الاصل الواحد الذي اشتقوا منه وفي تلك المدة امر مستحيل الا بعجوبة

هذه هي الصعوبة التي عرضت للقائلين بالاصل الواحد ولم يتمكنوا من حلها فلذلك راجت سوق المذهب الآخر الى حين ولكن المباحث الحديثة عادت بالناس الى المذهب الاول لما ثبت ان الانسان وُجد على الارض منذ زمن مديد وان التغيرات الكثيرة التي طرأت على صنوف الناس في ذلك الزمن المديد كافية على بطئها لافتراقهم عن الاصل الذي تفرعوا منه الى حد ان يكون منهم الابيض والاسود او القوقازي والزنجي . ولكن يقال من جهة اخرى ان مذهب ارتقاء الانواع لا يستلزم ضرورة تسلسل تنوعات النوع الانساني من اصل واحد فان اصحابه يقولون انه لا يبعد ان تكون انواع مختلفة من القرود قد ارتقت فتولد منها بعض تنوعات الناس . ومع ذلك كله نرى اصحاب هذا المذهب (وهو الذي اصطلح على تسميته بالداروني نسبة الى داروين اشهر القائلين به) اميل الى القول بالاصل الواحد حيث الاختلافات بين الانواع ضعيفة يمكن التوفيق بينها وردها الى مصدر واحد . فقد قال داروين في كتاب تسلسل الانسان ما ترجمته :

« لا ينكر ان طوائف الناس الموجودين الآن يختلفون في امور كثيرة كاللون والشعر وشكل الجمجمة ونسبة اعضاء الجسم بعضها الى بعض وغير ذلك ولكن اذا نظرنا اليهم جملة وجدنا كثيري التشابه في امور شتى . وكثير من هذه الامور لا شأن له او انه غريب في بابه حتى لا يكاد يحتمل ان الانواع او الاجناس الاصلية المختلفة حصلت عليه

مستقلة عن غيرها . وهذا الحكم صحيح على وجوه الشبه العقلية بين اكثر طوائف الناس تميزًا بعضها عن بعض . واذا رأى العلماء الطبيعيون اتفاقًا جليًّا في تفاصيل عديدة صغيرة بين طائفتين او اكثر من طوائف الحيوانات الداجنة او اشكال طبيعية متقاربة سواء كان ذلك في العادات او الاذواق او الاميال اتخذوا ذلك الاتفاق حجة لهم في القول بانها جميعًا متسلسلة من اصل واحد كانت فيه تلك الصفات وانهُ على ذلك يجب ان ترد الى نوع واحد . وهذه الحجة تصح ايضًا على اجناس الناس المختلفة »

قلنا ان اعظم عقبة في سبيل القائلين بتسلسل الناس من اصل واحد ان يبينوا كيف اختلفت النوعات البشرية هذا الاختلاف عن الاصل مع انها لا تكاد تختلف الآن بشيء عما كانت عليهِ في اوائل العصور التاريخية . وقد حاول الفرد رسل ولس (قسيم دارون في مذهبهِ) بيان ذلك بقولهِ ان الناس الاولين ممثلي الاجناس الحاضرة كانوا قليلي الادراك فلم يكونوا قد تمرسوا بفنون الدفاع عن انفسهم من عوادي الاقليم ولا اتقنوا الوسائل التي تكفيهم شرّ عدوان الطبيعة عليهم فلذلك كانوا في حالتهم الوحشية اكثر انفعالاً بالمؤثرات الخارجية من اهل هذا الزمان . ولذلك لم يلقَ الانتخاب الطبيعي وغيرهُ من العوامل مقاومة كبيرة في تكوين نوعات الانسان المختلفة وهي أورثت نسلها لون بشرتها وتركيب بنيتها

ويقال اجمالاً ان لمذهب القائل بوحدة اصل الناس صار اثبت الآن منهُ في الماضي . ولا يعلم هل تحلّ المسألة حلاًّ قاطعًا ولا ومتى يكون ذلك ولكن كثرة ما اكتشف في هذا الباب في الربع الاخير من القرن الماضي وفيما انصرم من هذا القرن يحدو الناس على الامل بحلها قريبًا كما قال دارون

***

قلنا في مقالة سابقة ان العلماء يقدرون قِدَم الانسان على هذه الارض بمئات الالوف من السنين غير جازمين بعدد تلك المئات . وكانوا حتى القرن الماضي يحكمون بتقدير احد كبار رجال الدين من الانكليز وخلاصتهُ ان الارض والانسان خلقا سنة ٤٠٠٤ قبل المسيح . ولكن علم الجيولوجيا اثبت ان الحيوان والنبات ظهرا على هذه الارض منذ عصور متوغلة في القدم . وان اول ظهور الانسان عليها يعد حديثًا بالنسبة الى ذلك وهو يتراوح بين ٢٠ الف سنة ومئة الف على القليل . وعلم الآثار والعاديات يؤيد علم الجيولوجيا من هذا القبيل .

وقد حفروا في بعض انحاء وادي النيل الى عمق ٦٠ قدماً فوجدوا قطعاً من الفخار واللبن المشوي مما دلّ على ان الانسان كان يسكن هذا الوادي ويحسن عمل الفخّار قبل الزمان الذي مرّ على رسوب ٦٠ قدماً من الطمي . وحسبوا ان متوسط رسوب الطمي لا يزيد على بضع بوصات في القرن الواحد فاذا فرضنا انها ست اقتضى ١٢٠ قرناً او ١٢ الف سنة لرسوب ٦٠ قدماً منهُ . ووجدوا في سويسرا ثلاث طبقات بعضها فوق بعض وفي كلّ منها آثار الانسان . اعلاها تحت سطح الارض ٤ اقدام وفيها من آثار الرومان الذين عاشوا منذ ١٥٠٠ سنة . والثانية التي تحت سطحها ١٠ اقدام . والثالثة تحت سطحها ١٩ قدماً . وعلى هذا الحساب يكون اهل الطبقة الثالثة قد عاشوا منذ نحو ٧١٠٠ سنة . وقد دلت آخر ابحاث علماء الآثار القديمة في هذا القطر انهُ كان مركز حضارة زاهية منذ ستة آلاف سنة او سبعة آلاف على القليل

والى هذه الآلاف الستة او السبعة يجب ان يضاف زمن طويل ارتقت فيهِ المعارف والفنون حتى بلغت مبلغها في عهد المصريين الاقدمين مثلاً . وزد على هذه الادلة دليل اللغات ونكتفي هنا بايراد شاهدين :

الاول شاهد العبرانية والعربية . فهاتان اللغتان قريبتان في النسب وليست احداهما مشتقة او متفرعة من الاخرى بل هما فرعا اصل واحد اقدم منهما بالطبع . فان كانت العبرانية ترجع الى بضعة الوف من السنين كما يدلُّنا التاريخ فالى كم من القرون والعصور يرجع اصلها الذي اشتقت منهُ

والثاني شاهد اللغات الهندية الاوربية المعروفة ايضاً باسم الآرية . فان الهنود واهل مادي وفارس واليونان والرومان والجرمان والكلتيين والسلاف القدماء كانوا في ازمان بعيدة امماً مستقلة في لغاتها وتواريخها . ومعلوم الآن ان هؤلاء جميعهم تفرعوا من اصل واحد وان لغاتهم بنات ام واحدة . فان كان عمر البنات يقدر بالوف السنين فبالحري عمر الام . فلا بدع اذا ارجعوهُ الى مئة الف من السنين